الفصل الخامس

الخرمة[١]

بدأت سياراتي الثلاثة: عربة التجول، (بك-أب) حاملة عفشي وشاحنة تحمل مرافقي، والمؤن، والبنزين، إلخ، عند الساعة السابعة والنصف من صباح التاسع عشر من مايو، الرحلة عبر البلاد، متحركة من عند المعسكر ولمسافة الميل ونصف الميل التي تفصل المعسكر عن طريق الذهب القديم. كان على موظفي شركة تعدين الذهب، وذلك قبل إنشاء الطريق المباشر من جدة عبر مدركة والبركة إلى منجم الذهب التابع لشركة التعدين العربية السعودية في مهد الذهب، أن يسافروا إلى المنجم عن طريق عشيرة ولبعض الأميال على طريق الرياض الرئيس إلى نقطة ينطلق منها طريق الذهب القديم هذا نحو الشمال.

أخذنا هذا الطريق الآن في الاتجاه المعاكس ولمسافة خمسة أميال ونصف الميل التي تفصلنا عن طريق الرياض، الذي تتبعناه في مساره الشمالي الشرقي ولمسافة ثمانية أميال ونصف الميل قبل الالتفاف من حوله، تقريباً تجاه الشرق عبر سهل ركبه الواسع العريض. سرنا في وسط صحراء ضخمة، والتي قد اخضرت الآن بسبب الأمطار الشتوية والصيفية، وكانت في بعض الأجزاء مغطاة بكثافة بشجيرات وأشجار الطلح القصيرة. نستطيع أن نرى أمامنا وعلى بعد، سلسلة جبال حضن البازلتية الموحشة، ذات الهضبة الحادة القمة، المنحدرة والتي تحدد

(١) للمزيد من التفصيلات عن منطقة الخرمة، انظر: عبدالله سعد الحضبي السبيعي. **الخرمة** (الرياض: مطبوعات الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ضمن سلسلة هذه بلادنا، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

موقع هدفنا الليلة، كـما يقول المثل العربي. «إذا رأيت حـضن، فأنت في نجد» - نجد اسم يغطي كل الهضاب العاليـة في وسط الجزيرة العربية. يمكن للمرء أن يرى حضن بسهولـة من عند عشيرة ومن عند محدثة، ومن عند أي نقطة مـرتفعة على مناحي، أو من على التلال الشرقية، لسلسلة جبـال الحجاز الرئيسة. لذا يعد سهل ركبة كأنه عتبة لنجد. نستطيع عند هذه النقطة، أن نرى قمم جبال الحجاز، بما في ذلك قمـة حبله ذات الرأسين، والتي قمت باسـتخدامهـا لتحديد الاتجاهات عـبر الصحراء. يقع بالقرب منا وإلى خلفنا أيضاً، حقل البس البركاني الصخري بقممه المنخـفضـة البـارزة، ويقع تل برث المنعـزل في وسط ركبـة، على يميننا وأمـامنا مباشرة، وفي اتجاه جنوب الجنوب الشرقي تقريباً، كانت هذه هي علاماتنا الأرضية حينما اندفعنا عبر السهل.

توقفنا على مـرتفع أرضي عشـبي بعد أن غطينا مسـافة (١٢) ميـلاً. غابت الحجاز الآن وراء الأفق، وحل محلها، أمامنا من نـاحية الشرق العديد من النقاط المتباينـة عند النهاية الشماليـة لحضن، وأصبحت القـمم المسطحة ظاهرة لنا، ومن بينها البتيلة وبرمة[١] وهي العلامات الأرضيـة لمسقى بريم، حيث سنقضي الليلة، أوصلتنا قيادة لمسـافة خمسة أمـيال أخرى إلى طريق السيـارات المتجه من مكة إلى خرمة وتحولنا إليه باتجاه شرق الشمال الشرقي. تمتد أمامنا الآن مرتفعات برقة ذات الانحدارات المكسوة بالعشب، وقد غطتها الرمال، والتي كنت قد عبرتها في الأيام الأقل سلمـاً لعام ١٩١٧م وأنا في طريقي من الطائف إلى الرياض. كـان الموقع، آنذاك، ممتلئاً بالأغنام والجمـال وخيام قبيلة البـقوم، غير أنه أصبح اليوم مـهجوراً

(١) البتيلة وبرمة في أسفل منطقة الحضن. (ابن جريس).

وعبرناه وعبرنا كذلك نتوآت أرض حضن الخارجية متجهين إلى آبار بريم، بعد تغطيتنا لمسافة (٢٤) ميلاً منذ دخولنا لطريق السيارات، وحوالي (٥٧) ميلاً من عند محدثة. لبريم ثلاث آبار يكون الماء فيها عند عمق (١١) قامة. وقد تجمعت عندها جماعة من البقوم لقضاء الليلة ولسقيا حيواناتهم. يوجد، حقيقة، ماء كافٍ في هذه المحافظة، وأحسنها كانت بئر برمة، التي تقع ناحية الغرب، بعض الشيء، بالنسبة لتل له الاسم نفسه، وعمقه ست قامات فقط. كان هذا على بعد حوالي ستة أميال، بينما تقع بئر صلبة على بعد الميلين إلى الجنوب الغربي أسفل معلم وهده لصخرة الحضن. توجد بئر أخرى عند عدمه إلى الغرب من موقعنا، بينما وبعيداً أمامنا، ناحية الجنوب الشرقي، توجد بئر قطان الواقعة في مسيل معلم حسنه التابع لحضن. ولربما تكون هنالك آبار أخرى لم يسمها لي سعيد التابع لعشيرة السميان من البقوم[1] والذي قد عينته دليلاً للرحلة إلى الخرمة في مقابل المبلغ السخي: ثلاثة ريالات، وقد رافقني، خلال فترة ما بعد الظهر، إلى واحد من تلال الصوابر التي تقع بالقرب من الآبار، لأقوم بالمسح العادي للبلاد المحيطة.

ينحدر الوادي، الذي تقع فيه آبار بريم من مرتفع وعيفر التابع لحضن، إلى الجنوب من موقعنا، وقد اتحد معه عند أعلى الآبار، واد آخر هابط من صخرة تقع خلف برمة، ماراً بتل بقبله وداخلاً في السهل المكشوف الذي يقع إلى ما وراء تل آخر يسمى أم الطريقين إلى الشمال من موقعنا. ولذا فإن اتجاه مساره هو من

(١) يظهر أن فيلبي خلط في نسب دليله سعيد، فهو في صفحة (١٦٤) يسميه سعيد بن حسين من المقطة (عتيبة)، وفي صفحة (١٧١) يسميه سعيد التابع لعشيرة السميان من البقوم، وهذا خلط واضح فالبقوم تختلف في نسبها عن عتيبة. (ابن جريس).

الجنوب إلى الشمال. تنحدر العديد من الأودية المشابهة من الحروف الصخرية المكسَّرة لحضن على كلا الجانبين لتنساب متوجهة إلى السهل، بينما تنتظم الجروف الصخرية نفسها على نقطتي المفصلة في شكل وتر يمتد من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي. يقع بعيداً على السهل وتجاه الشمال الشرقي عدد من التلال المنعزلة منها التوأم خصيعين والأشفين وكتيفه وغيرها. كان المنظر حقيقة، منظراً صحراوياً، وكانت أقرب المستوطنات هي تربة، التي تبعد على مدى رحلة يوم واحد، أو ما يقرب من ذلك، ناحية الجنوب الشرقي، والخرمة التي سنصلها غداً. بدأت رياح ساخنة عاصفة تضربنا عند الغروب وكانت درجة الحرارة، عند منتصف الليل قليلاً، تزيد عن ٨٠ درجة. كان ارتفاعنا هنا يقل عن عشيرة بحوالي ٨٠٠ قدم.

تأخر موعد مغادرتنا صباح اليوم التالي وذلك بسبب سعيد، الذي ركض فجأة ناحية الآبار ليشفع لأخيه. تعرض أخوه إلى غضب الناس لمحاولته سقي جماله دون الالتزام بنظام الدور، ولذلك فقد تم ضربه لإساءته للنظام. انتهى الشجار سريعاً على أي حال، وعاد سعيد إلينا، انطلقنا قبل الساعة السابعة صباحاً. كان طريقنا إلى الخرمة، وبكل المقاييس العملية، مماثلاً لطريق الحج، الذي سلكته في الاتجاه المعاكس عام ١٩١٧م، ولن أحاول أن أصفه بالتفصيل. لم نمض بعيداً إلاَّ وتأخرنا مرة أخرى بسبب ثقب في الإطار، وسرعان ما واصلنا سيرنا لمرتفعات حضن وهي مصطفة إلى البعيد وعلى يميننا. وصلنا إلى المجرى العظيم لشعيب الملحة، وذلك بعد أن عبرنا شعيب المشيريف، الذي يبعد عن بريم بحوالي سبعة أميال. يوجد في هذا المجرى المائي بئر تسمى الحفيرة وتقع قريباً من معلم جادة الحاج، وتقريباً تجاه الجنوب من موقعنا.

كانت العقبة الثانية أمامنا، وهي خفيفة نسبياً، هي مجرى شعيب السَّليم والذي يقع من ورائه سهل رملي طيني واسع تكسوه شجيرات الطلح، والذي يمتد إلى وادي اقتان (حوالي ١٤ ميلاً من بريم)، وهو واحد من المصارف الرئيسة لحضن، والذي يوجد فيه بئر تسمى برمة، والذي يتجه درب جمال نحوه من جدمت الحاشي والمعلم الأرضي الآخر، واسمه أم اشداد. ويقع بين هذا الأخير وبين معلم ثالث فيما يليه – واسمه هرش الريع[1] – بئر البديعة وهي في ممر يطرقه طريق الحج الرئيس من تربة إلى مكة مخترقاً سلسلة حضن. يقال إن أقتان، الذي يتحد في طريقه مع مجرى السَّليم، ومجرى المشيرف، يصب في نهاية الأمر، في سبخة المويه المنخفضة، على طريق الرياض الرئيسي، تاركاً تلال هكران إلى اليمين. ويقع، على بعد منا وعلى يسارنا، وادي واسع تكسوه الشجيرات، وذلك عندما عبرنا السهل فيما يلي اقتان إلى بعض الركام الحجري – حوالي (١٨) ميلاً من بريم – معلمة بذلك بداية بلاد صخرية متموجة تسمى هضب. وقد ظهرت لأول مرة، على بعد أميال قليلة فوق القمم البركانية لحقل الحمم البركانية الكبير لحرة النواصف فيما وراء الخرمة، وصلنا بعد أن قطعنا مسافة (٣٢) ميلاً من بريم إلى شعيب الشعبة وعبرناه وهو من أعظم أوعية الصرف في بلاد الحضن، وشاهدنا على بعد ميلين آخرين أول منظر لنخيل الخرمة. لمحت فقط ثلاث غزالات خلال كل هذه الرحلة بالسيارة، بينما كان الحال في السابق – قبل عصر السيارة – أنها تكوّن قطعاناً عظيمة تنتقل في مراعي الوادي. أدار ابن فراج، رئيس الفرقة، شاحنته لمطاردة قطيع من الغزلان، وأمسك بواحدة منها.

(١) والاسم الصحيح هو: ساق الريع. (ابن جريس).

أوقفنا سياراتنا عند الساعة الحادية عشرة والربع بجوار مدخل قصر خالد، مقر إقامة سعد بن لؤي، أمير الخرمة. لقد غطينا مسافة (٣٨) ميلاً ونصف الميل من عند بريم، ويبدو المكان وكأنه مهجور إلى حد بعيد. لا يوجد أحد حوله، غير أن ضوضاء سياراتنا التي لم تكن متوقعة سرعان ما أيقظت خدم الأمير النائمين وأتباعه، الذين ساعدونا للدخول إلى الساحة التي تقع بين المنزل الحكومي وبين المقبرة، على بعد (٢٠٠) ياردة وهي أرض مرتفعة بعض الشيء. استقبلني الأمير في هذه الأثناء شخصياً في غرفة نومه. حيث كان يعاني من الحمى الشديدة لعدة أيام وكان من الواضح أنه شديد الضعف نتيجة لذلك. أصر على أن أظل معه لمشاركته إفطاراً خفيفاً من تمر وزبدة ولبن رائب، وفي أثناء ذلك أخبرني في بطء عن بليته.

كان الوادي الجاف عادة فائضاً طيلة أربعة أشهر وإلى أيام قليلة قبل وصولنا، وكان فيضانه هو الأكبر منذ عام ١٩١٩م، عام المعركة المشهورة في تربة التي هزمت فيها قوات الشريف عبدالله بواسطة السعوديين. أذكر أنني سمعت في ذلك الوقت، أن سكان تربة وكذلك القوات السعودية المهاجمة قد قاموا بصيد أعداد كبيرة من الأسماك من البرك التي خلفتها مياه السيول. وتشير كل الاحتمالات إلى أن هذه الأسماك ظلت لسنوات عديدة في تلك البرك التي بقيت تقريباً مستمرة، خاصة تلك التي تقع في اتجاه أعلى الوادي، في الجبال وقد أنزلها السيل. تم التبليغ عن وجود الأسماك في هذه المرة أيضاً، ولكن لا يبدو أنها كانت كثيرة العدد أو كبيرة الحجم، وكل ما استطعت مشاهدته في بعض البرك القليلة المكسوة بالفطريات اللزجة والتي كانت لا تزال موجودة في بطن الوادي، هو عدد من الضفادع. ويمكن الحصول على مياه ممتازة، حتى في الموسم الجاف، وذلك فقط

بإزالة بوصات قليلة من طبقة الرمال من بطن السيل، وبالطبع، فإن الخرمة يتم تموينها بسخاء، بعدد من الآبار المنتظمة ذات الأعماق عديدة القامات وذلك لأجل ري أشجار النخيل والمحاصيل الحقلية في الواحات الغنية التي تمتد إلى مسافة خمسة أو ستة أميال على الأقل أعلى وأسفل الوادي.

كان امتداد فترة امتلاء الوادي بالماء، من الوجهة الزراعية، ميزة عظيمة للواحة، غير أن تكوين البرك، حين انحسار المياه، حولها إلى بؤر توالد للبعوض، الذي حول المنطقة إلى مركز للحمى في المجتمع. كانت الحمى خبيثة جداً، ولعلها نوع من الملاريا، وقد قتلت الحمى حتى وقت زيارتي، حوالي مئة شخص[١]، ويمكن للمرء أن يرى ذلك من استمرار اتساع المقبرة بالقبور الجديدة ليدرك مدى خطورة هذا الوباء. رأيتهم في فترة ما بعد العصر، يوم وصولنا، وهم يحملون جثماناً مغطى بالكفن الأبيض ومن فوقه قماش مخطط، نزعته الرياح عن الجثة في الطريق، وهم يحملونه من القرية التي تقع بجوار القصر للدفن. وبعد الدفن، شرع حفار القبور في إعداد قبر ضحل لا يزيد عمقه عن ست بوصات، للضحية التالية للوباء، والذي كان يحتضر تلك اللحظة. كان زمناً عصيباً ومخيفاً على كل أهل الخرمة، وقد علمت بعد شهور أن الوباء قد قضى على حوالي (٦٠٠) شخص من بين السكان الذين يقارب تعدادهم (٣٠٠٠) . كان من بين مخزون

(١) الحُمَّى من الأمراض الفتاكة التي كانت تقتل كثيراً من الناس، ويحدثنا فيلبي على طول صفحات هذا الكتاب عن المعاناة التي كان يعانيها الناس من هذا المرض، بل لقد عانى منها هو أكثر من مرة على طول رحلته في جنوبي البلاد السعودية، وأوشك أن يفقد حياته أكثر من مرة. كما أن كبار السن، والذين عاصروا القرن الهجري الماضي، يحدثوننا أحياناً بقصص عديدة حول مخاطر هذا المرض، حتى إنه في بعض الأحيان كان يقضى على أعداد كثيرة في وقت واحد. (ابن جريس).

مؤني زجاجة دواء واحدة تحتوي (١٠٠) حبة كينين وقد قدمتها كلها للأمير، له هو ولأجل أسرته. ولا أستطيع أن أعمل أكثر من ذلك. ولكن كل ما يحتاجونه في هذه المناطق المنعزلة، هو وجود الطبيب، إلى جانب كميات كافية من الأدوية والعقاقير[١].

كان زامل شقيق الأمير مريضاً أيضاً بالحمى، ولهما شقيق ثالث حسين، الذي كنت قد قابلته في عشيرة حينما أقبل لتقديم تحياته للملك. كان ثلاثتهم أبناء للمحارب المشهور في التاريخ العربي، خالد بن لؤي، الذي دافع عن الواحة ضد ثلاث هجمات قامت بها قوات الأشراف في عام ١٩١٨م و ١٩١٩م وقام أخيراً بتوجيه العمليات التي أدت إلى ضم الطائف في سبتمبر ١٩٢٤م ومن ثم دخل إلى مكة على رأس قوات السعوديين بعد شهر من ذلك. كان على رأس قوة في العمليات ضد اليمن عام ١٩٣٤م، غير أنه مات مستسلماً للحمى في تلك الأراضي المنخفضة غير الصحية في سهل تهامة. لقد كان وبكل المقاييس رجلاً عظيماً، صارماً ومتعصباً وخادماً مخلصاً جداً لمليكه. عمل ابنه الأكبر، سعد، وهو مضيفي، ولا يزال أميراً على الخرمة، في شبابه مع جيش الأشراف الذي كان يحاصر أو يحاول محاصرة المدينة خلال الحرب العظمى، ولكنه عاد إلى موطنه نتيجة لمشاجرة مع الأمير عبدالله. حينها أنهى والده، خالد، معاهدته للولاء للملك حسين وألقى بكل قواه مع ابن سعود. كان النزاع حول الخرمة هو سبب

(١) انتشار مرض الملاريا وغيره من الأمراض، وموت الناس بأعداد كبيرة يدل على ضعف الرعاية الصحية، بل إنها معدومة في كثير من المواطن، ثم تحسنت الأوضاع الصحية منذ أواخر القرن الهجري الماضي حتى صارت مراكز الرعاية الطبية منتشرة في كل مدينة وقرية وهجرة، وتم القضاء على كثير من الأمراض أمثال الحمى وغيرها. (ابن جريس).

الحرب بين الملك عبدالعزيز. والملك حسين وقاد إلى هزيمة تامة لسلالة الأشراف[١].

لم تكن قرية الهجرة، ذات البناء الشبيه بالقلعة والمنازل ذات الطابق الواحد المبنية من اللبن، والتي عسكرنا أمامها، قائمة حينما مررت بالخرمة في عام ١٩١٧م وعسكرت حينها، في القرية الرئيسة للواحة وكان اسمها سوق. كان لفظ «هجرة» هو اللفظ المعتاد للقرى، والقرى الصغيرة التي أسسها واستوطنها الإخوان في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية[٢]. يبدو أن هذه القرية بالذات، أي هجرة الخرمة قد تأسست بعد معركة تربة في عام ١٩١٩م، وحينها، كان الشيخ إبراهيم ابن داود مناصراً صاعداً للدعوة، قد أوفد لتوجيه قيادة المستوطنين الذين تجمعوا من كل القبائل المجاورة، إلى الأسلوب الذي يجب اتباعه، وما زال موجوداً هنا، بعد (١٧) عاماً. وفي ١٩٤٠م سمعت بأنه توفي والتحق بآبائه بعد سنين عديدة من الفخر والسؤدد. كان يبدو لي دائماً وكأنه عجوز، برغم أنه ربما لم يتجاوز الخمسين عاماً، عندما توفي. زرته في هذه المناسبة للمجاملة ولتناول الشاي والقهوة معه. كان رجلاً لطيفاً، حميماً، عليه أسارير المرح برغم مظهره الكئيب. وجدته وهو يعاني ليس من الحمى ولكن من سوء الهضم، وقمت بالبحث في

(١) للمزيد من التوضيحات حول الحرب بين الملك عبدالعزيز والملك حسين ودور بلاد الخرمة وأهلها في ذلك الحرب، انظر: السبيعي، **الخرمة**، ص٢٥ وما بعدها، العثيمين، **تاريخ المملكة**، حـ٢، ص١٥٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ولمزيد من التفصيلات عن الدور الذي بذلته حكومة الملك عبدالعزيز آل سعود في بناء الهجر وتوطين البدو، انظر: أحمد عبدالرحمن الشامخ. (توطين البدو في المملكة العربية السعودية (الهجر)) **نشرة دورية تعنى بالبحوث الجغرافية، يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت** (الكويت: جامعة الكويت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ص٩ وما بعدها. (ابن جريس).

حقيبة مؤني الطبية المحدودة لأعطية زجاجة من شراب الأستون المركز، مقابل إكرامه لي.

لقد قابلته أول مرة قبل عام أو عامين حين قمت بزيارة الخرمة في صحبة الملك الذي كان في رحلة الصيد. تفضل الأمير سعد[١] باستقبالنا عند معسكره الصحراوي.

تجولت مرتجلاً عبر الهجرة وذلك بعد وصولي مباشرة، وعبر مزارع النخيل الكثيفة من ورائها، إلى حيث طرف الوادي، الذي كان عرضه في هذا الموقع حوالي (٢٥٠) ياردة، وكان وسطه الرملي لا يزال رطباً ومتخللاً بمساحات طينية بسبب السيول. خصصت اليوم التالي للرحلة لقسم آخر من واحة حوقان مع اتجاه أعلى الوادي.

كان يرافقني في ذلك أحد أتباع الأمير، ويُسَمَّى مسعوداً، وهو رجل ماكر المظهر. ويبدو أنه يعاني من آثار جانبيه للحمى. ولكنه كان حسن القصد كما يبدو لي. لم تكن خوقان بالقرية ولكنها كانت مساحة واسعة من مزارع النخيل ينتشر خلالها قصور منعزلة لإيواء السكان العاملين في الزراعة. كانت تقع إلى ناحية الغرب مباشرة من قسم الهجرة، وتبدأ من قلعة الحاكم على بعد يقدر بالميل الواحد. وتصب فيها الأراضي المرتفعة على الجانب الأيسر للوادي الرئيس، مخترقة مزارع النخيل في شكل مجارٍ ضحلة عديدة، أكبرها هو شعب خوي. وتفصل أرض من حصا مرتفعة القسم الشرقي، أو الرئيس، لنخيل خوقان عن

(١) سعد بن لؤي أخو الأمير/ خالد بن لؤي. (ابن جريس).

القسم الغربي البالي المكمل للمنطقة عدا مساحات قليلة مبعثرة في بطن الوادي ينمو فيها الأثل. قمنا بعبور مجرى الجوّفا العميق، الكثير الشجر، لنصل إلى هذا القسم الخارجي للواحة وتباطأنا لفترة باحثين عن الطيور التي كان العديد من أنواعها ظاهراً لنا - يمام الصحراء ويمام النخيل، واليمام طويل الذيل، والروبين الأسود، والطائر الثرثار، والخطاف، والباشق، والبلبل، وآكل النحل. وجدنا أيضاً عش يمامة سوداء مهلهلاً وبه بيضتان، من أعشاب ضحل قائم بشكل غير ثابت في وسط مجموعة من أعواد متداخلة بغير إحكام. كان البيض على وشك أن يفقس.

يجري الوادي الرئيس من هذا الموقع من الجنوب إلى الشمال ولكنه ينحني في أسفله تجاه الشرق عبر الواحة. وينحدر الوادي من جبال الحجاز عبر تربة والغريف إلى الخرمة ليفقد ذاته في نهاية الأمر في الصحراء في رمال «عرق سبيع». اسمه الحقيقي «وادي سبيع» ولكنه في العرف المحلي يحمل أسماء أخرى مثل وادي تربة ووادي الخرمة. ويتحد به، من ناحية الشرق، في الصحراء شعيب حثاق وشعيب مقسن الهابطان عبر حقل الصخور البركانية الكبير من القمم البركانية لشثران وريان بالتتابع. شمخت بعيداً إلى الجنوب، قمة عالية تسمى «الخلّ»، مطلة فوق الطريق الذي يقود من الخرمة إلى تربة.

دعاني الأمير ومجموعتي لتناول الغداء، حينما رجعت من هذه الرحلة، كما فعل الليلة الماضية لتناول العشاء عنده، ولكنه كان يحس بأنه ضعيف جداً ولا يقدر على المشاركة في الطعام. لم يعد لديَّ مبرر لضياع الوقت وسرعان ما بدأنا المرحلة التالية من رحلتنا وذلك بعد تناول الغداء مباشرة. تحركنا بالقرب من قرية

سوق، التي تبعد بما لا يقل عن الميل الواحد عن قصر خالد، ووصلنا إلى معبر لوادٍ آخر، عرضه نصف الميل، ولم نجد مشقة كبيرة في عبور هذا غير مرة واحدة حين غرزت شاحنتنا في الرمال في موقع رطب. يجري الوادي، أعلى هذا المكان بين مجموعة نخيل الدغيمية على بعد نصف الميل، على جانب الوادي الأيسر، ودبيلة على الجانب الآخر، حيث كانت الأرض اليابسة عند الطرف الجنوبي لدبيلة. توجد أشجار أثل مبعثرة في اتجاه أعلى الوادي في هذا الموقع على الجانب الأيمن منه، غير أنه لا توجد أشجار نخيل. واصلنا الآن السير على أرض ثابتة، خارج نخيل دبيلة ناحية الشمال الشرقي، حيث رأينا، فيما يليها، وإلى ناحية الشمال، المجموعتين المتبقيتين لنخيل الواحة، السليمية على جانب الوادي أعلى من الموقع حيث يدخل شعيب طلحة إلى الوادي، وأبو جميدة على مسافة من ورائها. يوجد المسجد الرئيس للخرمة في قرية السوق، وكذلك يوجد مسجد آخر بالأهمية نفسها في السليمية. كما توجد مساحة صغيرة في القرى الصغيرة الأخرى للصلوات الخمسة، غير أنه وفي أيام الجمع، يذهب الكل إلى مسجد قرية السوق أو مسجد السليمية.

استدرنا ناحية الشرق تدريجياً، بعد عبورنا شعيب طلحه على حافة حقل صخور بركانية، وعبر سهل حصوي واسع توجد به منخفضات ذات شجيرات وغطاء نباتي آخر. يبرز على الأرض البركانية الموحشة براكين قديمة يصل عددها إلى الاثني عشر بركاناً، ولكن، حتى في هذا القفر توجد مسحة لغطاء نباتي ربيعي. كان مطير هو اسم دليلي لهذا القسم من الرحلة إلى رنية ويوحي اسمه هذا بأول إشاعات وصول السيارات إلى الجزيرة العربية. ينتمي مطير إلى فخذ بني ثور التابع لسبيع وقد عاش حياة شبه بدوية كان مركزها الخرمة والتي يعدها

موطنه. كان شعيب عشاش الذي يهبط من قمة قوس عقبة بسيطة في طريقنا، بواديه ذي الحشائش والشجيرات. وصلنا إلى وادي حثق العظيم بعد مرورنا شعيب عشاش، وعلى بعد مسافة (١١) ميلاً من الهجرة، وكان عرض وادي حثاق (٢٥٠) ياردة، وهو رملي وخالٍ من الغطاء النباتي، وتقع آبار حزيم ناحية الجنوب وعلى مسافة خمسة أميال وهي ذات مياه جيدة. سرعان ما شاهدنا تن، ذلك المعلم الأرضي مسطح الرأس الذي يسيطر على آبار القنصلية التي كنت قد وقفت عندها عام ١٩١٧م، وبرزت فوهة بركان صغيرة تسمى برام على الجانب الآخر لوادي سبيع. تغيرت صفة البلاد، فيما وراء شعيب مقسن - حوالي ثمانية عشر ميلاً ونصف الميل من نقطة الانطلاق-، وأصبحت الأرض واسعة من بازلت ومتموجة وعليها منخفضات متكررة وسلاسل جبلية، وعموماً فهي صعبة. قادتنا هذه البلاد إلى مجرى دحلة الضحل، المخضر، والذي قادنا بدوره إلى الشبكة الأكبر للصرف والتي تسمى المشقر وهي تنحدر من تل ريان. سرنا على الجانب الأيسر لهذا المنخفض لنتحاشى بطن الوادي الصعب، واصلنا السير من فوق منحدر مخضر بالنباتات وكأنه حقل. تعقدت مسيرتنا مرة أخرى بمحاولتنا الاختيار بين عدد من المجاري الثانوية حتى تمكنا من الخروج، بعد فترة، إلى سهل مُعْشر قليل الصعوبة نسبياً، حيث قررنا أن نعسكر لقضاء الليلة، بعد أن غطينا مسافة (٣٦) ميلاً من الخرمة. لقد استغرقت هذه المسافة، مع توقفات متكررة لتسجيل الاتجاهات، حوالي أربع ساعات، وكنت مقتنعاً بما أنجزته خلال فترة ما بعد الظهر.

لقد وصلنا إلى ما يمكن اعتباره حدود منطقة سبيع، حيث يوجد تل صغير مناسب يقع بالقرب منا. قررت أن أقوم بمسح شامل للمناطق المجاورة من عنده،

في صباح الغد، قبل مواصلة رحلتنا. كانت الليلة دافئة وساكنة وكانت عموماً ذات سحب، وقد جذب مصباحي بضوئه الناصع، مئات الحشرات، وقليلاً من العثة وأعداداً ضخمة من الجندب، وفرس النبي من عدة أنواع، وخنفس الروث، وما شابه ذلك. تساقطت قطرات قليلة من المطر عند الساعة (١١) مساءً، ولم أتمكن تلك الليلة من دراسة الطقس، غير أنه قد يمكنني الحصول على تحديد خط الطول للمكان وذلك عندما تشرق الشمس في اليوم التالي. تقع سلسلة جبال العاقر إلى اليمين من موقعنا، وهي حاجز ضخم، وعلى بعد الميل ونصف الميل لقمتها البارزة التي تمكنت من زيارتها في الصباح لأجل القيام بالمسح العام.

كانت القمة على ارتفاع (٣٠٠) قدم فوق المستوى العام للبلاد المجاورة، ولكنها كانت تسيطر تماماً على منظر شامل لكل ما حولها ومن كل الجهات، كانت سلسلة جبال العاقر واحدة من السلاسل البازلتية العديدة التي تحتل مساحات واسعة، تمتد من ناحية الجنوب الشرقي إلى الغرب والشمال الغربي وتفصلنا من حقل الصخور البركانية العظيم الذي يمتد بدوره من الخرمة إلى رنية. يقع جبل العاقر، ذو الرأس المزدوج، عند نهاية السلسلة إلى الجنوب الشرقي، وقد اشتق اسم التل بسبب هذا الرأس المزدوج. وقفت كتلة المصلوخ مطلة على رنية بعيداً تجاه جنوب الجنوب الشرقي. كما برزت إلى خارج كتلة عالية من البازلت تسمى المصلوخ. وتقف كتل جبل كور المجامعة إلى يمين المصلوخ ومنفرج وادي رنية يطلان من أعلى على حقل الصخور البركانية لحرة الناصفة إلى الشمال من كور المجامعة وله عشرة فوهات واضحة، هي نعمى إلى الجنوب من موقعنا، والأخريات بالترتيب من الجنوب إلى الجنوب الغربي هي: الصفراء، وحضيب، ورياعين الشعران، وشثران، وأربع قمم تسمى في جملتها الذياب. لم تعد

واضحة لنا تلك الفوهات الواقعة إلى الغرب من الخرمة. امتلأت الأرض بسلاسل بازلتية غير محددة وصعبة وبلا سمات بارزة وامتدت إلى أقصى الشمال الغربي، إلى حيث تقف روابي حمورة المنخفضة الحمراء. ويقف إلى يمين هذه، وبعيداً، هرم بريم الذي سبق ذكره.

تقع قليلاً ناحية الشمال الشرقي هضبات عنيزة وعنيزان المنخفضتان على بعد خمسة أميال، بينما كانت هضبة تن واقعة تماماً ناحية الشمال الشرقي. وهي ذات قمة مسطحة وصفحات منحدرة. يقع إلى يسار هذه هضبه ذريرة معلَّمة موقع قنصلية التي تقع إلى يسارها، وبعيداً في الصحراء، هضبتا بريم التوأمان السوداوان. تقع إلى الشمال الشرقي وإلى الشرق من موقعنا، وعلى البعد، رمال عرق سبيع، محجوباً جزئياً بعدد من سلاسل صخرية أو تلال، منها حسَّن وخلفه حسَن وفي المقدمة تويم وبعد هذه النقاط الشبيهة بالجزر وتسمى الغراميل بعضها وكأنه إبر سوداء بارزة من بين الرمال. ويفصلنا عنها سهل مْعشر منحدراً إلى منخفض تمتص رماله مياه السيول، ولا تصل إلى وادي سبيع. تقع تقريباً إلى الشرق من موقعنا هضبة وسيم الصغيرة، وسنكون على بعد ليس بالكثير وقريباً من الطريق متابعين لهضبة ضبعة.

عدنا إلى المعسكر عند الساعة التاسعة صباحاً، لنجد بدوياً ضالاً، يسأل إن كان لدينا دواء الكينين، وقد خذلناه في مطلبه ذلك لأن كل ما كان في حوزتنا من دواء قد تركناه لدى حاكم الخرمة. بدأنا مرة أخرى تجوالنا. تكونت مجموعتي من شخصي إلى جانب دَليلَيَّ اللذين استقلا سيارة التنقل ومعهما سعد بن عثمان وهو خادمي الخاص، كما يقوم بتصبير الحيوانات، وكانت خدماته لي متقطعة منذ حملة الربع الخالي في عام ١٩٣٢م، هذا إلى جانب محمد، سائق سيارتي الخاص،

سيارة (البيك أب)، كما ركب إبراهيم بن فرج المسؤول عن حراستي واثنان من رجال الملك، وسواق، وميكانيكي، في الشاحنة. وعليه فعددنا كلنا، تسعة أشخاص، وباستثناء استبدال المرشدين في كل مرحلة، فقد ظللنا معاً، حتى أبها، حيث، كان معروفاً، أن ترتيبات جديدة يتم إعدادها. وكان ابن فرج رجل حسن النوايا وله ورغبة في المطاردة والصيد. كان سعيد الميكانيكي كسولاً، يصعب تصديقه ويعمل مساعداً للطباخ ويقوم بغسل الصحون ولا معرفة له بالميكانيكا. لم يفعل شيئاً -حقيقة- غير القيام بخدمات بسيطة لعباس سائق الشاحنة، الذي كان ذا شخصية، غير أنه أحياناً يكون مزعجاً. ترك سعد ومحمود - الأخير مواطن من حضرموت أقام منذ فترة في مكة[١] - بصماتهما في قصتي هذه أثناء مراحل بنائها، لم نكن أبداً بالجماعة المتجانسة، ولكن هذا لم يكن ذا أهمية كبيرة خلال المراحل السهلة المبكرة للرحلة.

(١) لقد خرج بعض الحضارمة من بلادهم إلى الحجاز واستوطنوها وعملوا في مهن عديده من أهمها التجارة التي برز فيها بعضهم حتى صاروا من كبار تجار المملكة العربية السعودية، أمثال: باعشن، بادريق، ابن محفوظ وغيرهم كثير. (ابن جريس).

obeikandl.com